

45

2016

مجلة نساء العربى لعلوم وطب النفس

سلسلة إصدارات مكنية مكممة

العدد الخامس و الاربعون

نحو مدرسة عربية في علم النفس

سكوا و ذاكرة الجمعية الفلسطينية ذاكرة حية ومعاناة فلسطيني

كامر كتلو

عدد 45 - 2016

إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية



الذاكرة الجمعية الفلسطينية

ذاكرة حية ومعاناة لا تنتهي

كامل كتلو

الفهرس

4	ملخص
5	المقدمة
11	المشكلة موضوع الدراسة
12	أسئلة الدراسة
12	أهمية الدراسة
13	الأثار السياسية للدراسة
13	الدراسات السابقة
20	مصطلحات الدراسة
21	الإجراءات المنهجية للدراسة
21	أولاً: منهج البحث
22	ثانياً: مجتمع الدراسة والعينة
24	ثالثاً: مادة البحث وإجراءات الدراسة
24	صدق التقييم
25	محددات الدراسة
25	نتائج الدراسة ودلالاتها ومناقشتها
25	أولاً: نتائج الدراسة
58	ثانياً: الخلاصة والاستنتاجات والتوصيات
60	التوصيات
60	المراجع

سيكولوجيا الذاكرة الجمعية الفلسطينية، ذاكرة حية ومعاناة لاتنتهي

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على المحتوى الظاهر لقصة الحياة لدى المسنين من اللاجئين الفلسطينيين الذين عاشوا الدياسبورا. ومعرفة السيرورة التاريخية لحالة التهجير وكيفية تأثيرها على الواقع النفسي والاجتماعي لهم، ومعرفة الدلالات السيكولوجية والاجتماعية والسياسية لهم، تكونت عينة الدراسة من 121 من المسنين من اللاجئين الفلسطينيين منهم 78 ذكور و 43 إناث الذين رويوا قصة حياتهم، استخدم منهج تحليل المحتوى (الكمي والكيفي) ومنهج Van de Castle لتصنيف عناصر محتوى قصة الحياة إلى فئات . وقد كشفت نتائج الدراسة عن سبع فئات رئيسية تضمنتها قصة الحياة وعن عدد من الفئات الفرعية تمت مناقشتها، ومناقشة الدلالات السيكولوجية والاجتماعية والسياسية لها. قدّم الباحث بعض الاستنتاجات والتوصيات .

الكلمات الدالة : المحتوى الظاهر لقصة الحياة، اللاجئين الفلسطينيين، الدياسبورا.

Abstract

This study aims to identify the manifest content of the life story of the elderly diaspora Palestinian refugees and to explore the history of the process of their displacement and its psychosocial, social and political implications for them. The study sample consists of 121 elderly Palestinian refugees, 78 males and 43 females, who recounted the

الحروب والنزوحات
المسلحة هي تجسيد حي
لما يعرفه بالعنف
السياسي

تحدث الحروب دماراً
كبيراً، كما تترتب
عليها كوارث طبيعية
ومآسي بشرية،
وذكريات حزينة. ولعل
الأسرة هي أكثر
المؤسسات تأثراً بهذه
المآسي

story of their lives. Method content analysis (qualitative and quantitative) and methodology of Van de Castle Hall are used to classify the elements of the life story content into categories. The results of the study reveal seven major categories of the life story and a number of sub-categories. All of these categories along with their psychological, social and political implications are discussed. The study concludes with implications and recommendations.

Keywords: Manifest Content of life story, Palestinian refugee, diaspora

المقدمة

الحروب والنزاعات المسلحة هي تجسيد حي لما يعرف بالعنف السياسي، حيث يتقاتل أطراف مختلفة لأسباب عديدة تتراوح بين الاعتداء، واغتصاب الأرض، والممتلكات وانتهاءً بالصراعات حول نزع الشرعية السياسية، مروراً بصور مختلفة من النزاعات العرقية والدينية والسياسية. وتحدث الحروب دماراً كبيراً، كما تترتب عليها كوارث طبيعية ومآسي بشرية، وذكريات حزينة. ولعل الأسرة هي أكثر المؤسسات تأثراً بهذه المآسي، ذلك أن ما يسمى بانكسارات العنف أو صدمة العنف **violence trauma** أو صدمة الحرب **war trauma** تؤثر تأثيراً كبيراً على قافلة الأفراد من مساكنهم ومن أماكن إقامتهم، وكثيراً ما تتسبب في نزوحهم كلاجئين إلى أماكن أخرى، ربما تكون خارج حدود الوطن (زايد، 2009).

منذ احتلال بريطانيا لفلسطين في أوائل القرن العشرين يواجه الشعب الفلسطيني العنف الاستعماري والصهيوني الذي أخذ أشكالاً متعددة، منها القتل العمد والاعتقال ونسف المنازل وإغلاق المدن والقرى والتجهير القسري للمواطنين من مدنهم وقراهم (كتلو، 2012). تعد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين حدثاً قاسياً في القرن العشرين لسببين: الأول أنه تم الدفع بكتلة بشرية هائلة خارج حدود وطنها الأصلي، والثاني طول فترة التجهير، فهم الأطول معاناة بين لاجئي العالم. وقد أفادت إحصائيات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في عام 2007، إلى أن هناك ما يقرب من أربعة ملايين ونصف لاجئ فلسطيني يقيمون في الضفة الغربية والدول المجاورة، حيث يعيش ما نسبته 29% منهم في حوالى

منذ احتلال بريطانيا
لفلسطين في أوائل
القرن العشرين يواجه
الشعب الفلسطيني
العنف الاستعماري
والصهيوني الذي أخذ
أشكالاً متعددة

58 مخيماً للاجئين، موزعة على المناطق المحتلة والدول المجاورة (الأردن، سوريا، ولبنان). في حين بلغ عدد اللاجئين القاطنين في قطاع غزة (1059.584) منهم 47% موزعين على ثمانى مخيمات. (www.malaf.infol). وقد مضى على المأساة الفلسطينية ما يقارب 64 عاماً، أي أن الأفراد الذين عاشوا المأساة وكانوا ضمن الفترة العمرية أقل من عشرين عاماً، الذين كتبت لهم الحياة هم الآن في الفترة العمرية ما بعد الخامسة والسبعين أي في مرحلة الشيخوخة. ويمثل المسنونون الفلسطينيون من اللاجئين خلاصة ومحصلة للذاكرة الجمعية والوعي الجمعي. فعندما يرحل الذين عاشوا الثقافة في فترة زمنية محددة فإنهم يتركون وراءهم ما يسميه وليمز (Williams, 1958) ثقافة الوثيقة أو الثقافة المدونة culture documentary ويشمل امتداداً من أرقى درجات الفن إلى الحقائق المتعلقة بالأزياء (شاهين، 2012).

من نتائج دراسة (أبو رمضان، 2011) أنه كلما كبر العمر زاد الانتماء إلى الوطن، فلسطين بالنسبة لهؤلاء المسنين هي الأرض التي ولدوا وعاشوا فيها. هذا المسن الفلسطيني صامد، مهاجر، أو مهجر، لاجئ أو نازح أو مشرد يعيش في الوطن أو خارج الوطن منزرع في الأرض ومنتشر في جميع بقاع الأرض، متمسك بالمكان أو خارج المكان، يحتفظ بحفنة من التراب، يحمل مفتاح بيته، يحتفظ بـ "كوشان" أرضه وهي الأوراق الثبوتية للملكية، ينتظر في المخيم، في مهاجر الشتات الفلسطيني، ينتظر ولا يمل الانتظار. وتمر سنة وسنوات ونصف قرن وأكثر وما زال ينتظر إلى ان يتحول الحلم إلى حقيقة على أرض الواقع مهما طال الانتظار، وكثرت الأسفار، يتحول إلى حالة من العشق والذوبان والانصهار، فهي في وجدانهم وفي ذاكرتهم التي تأبى النسيان .

والشيخوخة هي مرحلة طبيعية أساسية من مراحل النمو الإنساني وهي حالة سيالة تتأثر بفسولوجية الفرد وسيكولوجيته وبالبيئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يعيش فيها واتجاهاتها التي يتقبلها ويتصرف طبقاً لها (قناوي

تعد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين حديثاً قاسياً في القرن العشرين لسببين: الأول أنه تم الدفع بكتلة بشرية هائلة خارج حدود وطنها الأصلي، والثاني، طول فترة التهجير، فهو الأطول معاناة بين لاجئي العالم

(1987، ص3). تعتبر مرحلة المسنين المرحلة التي يختتم بها الفرد حياته، وتتميز ببعض التغيرات البيولوجية والنفسية والاجتماعية والعقلية، التي تكون محكومة إلى حد كبير بثقافة المجتمع وبتجاهات الناس نحوها (نفاحة، 2009) وتؤدي العوامل النفسية والاجتماعية أدواراً مختلفة في جعل حياة المسن سعيدة جيدة يسودها الرضا والاستقرار والتوازن الوجداني، أو جعلها حياة اليأس والاكتئاب والاضطراب الوجداني (معمرية وخرز، 2009). يذكر الباحثون أنه عندما يخفق المسنون في الإبقاء على علاقاتهم ببيئاتهم الاجتماعية، فإن أسباب الإخفاق تكمن في البيئة الاجتماعية وليس في كبر السن. وأن عوامل مثل المكانة في العمل والموارد المالية وغيرها تؤثر في قدرة المسن في أن يحيا حياة مشبعة بدرجة أكبر مما يؤثر عليه الكبر (أحمد، 1987، ص219). فالعوامل النفسية والاجتماعية غير الملائمة كالعزلة والضيق الاقتصادي والحرمان والتجاهل والإهمال، تؤدي دوراً كبيراً في جعل مرحلة الشيخوخة فترة تدهور (الديب، 1988، ص50).

يولد الإنسان ونزعة الحياة دفاقة في عروقه. إنه يريد أن يكبر ويتعرف ويمكن ويتمدد ويسيطر ويمتلك ناصية ذاته وكيانه، كما ناصية المكان الذي يشكّل مجاله الحيوي. حلم التمدد والتمكّن والإسكاف بزمّام المكان والزمان هو من الدوافع الأساسية بل هو لب الدوافع جميعاً (حجازي، 2006، ص249).

يطور الطفل من خلال الحواس وعيه بالمكان؛ وفيما بعد يطوّر مشاركته الاجتماعية في المكان الذي يعيه ويطمئنّ إليه. يجسد المكان في حياة كل إنسان محوراً هاماً من محاور بناء وتطوير الهوية الشخصية. المكان من وجهة نظر نفس - ثقافية هو ليس الطبيعة الجغرافية و البيئية التي نعيش فيها، وهو ليس مجرد معطيات طبيعية مجردة يمكن تدوينها على شكل معلومات، بقدر ما هو صور ومعاني ذهنية يعيها الإنسان في ارتباطه بالمكان وتسمّى بالهوية المكانية (كريم، 2007).

في الهوية ما يفصل بين قومية وأخرى، على مستوى الأعراف والعادات واللغة

هناك ما يقرب من
أربعة ملايين ونصف
الاجئ فلسطيني يقطنون
في الضفة الغربية
والدول المجاورة

يمثل المسنون
الفلسطينيون من
الاجئين خلاصة ومعدة
للذاكرة الجمعية
والوعي الجمعي

والتاريخ ؛ والثقافة مرجع الهوية الأساسي، إذا ما تم النظر إليها كطريقة شاملة في الحياة (دراج، 2012، 28) .

فالمكانية، كنتاج اجتماعي، هي في الوقت ذاته الوسط والنتيجة، افتراض مسبق وتجسد، للفعل الاجتماعي والعلاقة الاجتماعية (جاسم، 2005، 9)(www.grenc.com)

أن المكانة والمكان والكيونة كلها مشتقة من الجذر نفسه في اللغة العربية كما يرى (حجازي، 2006) فإن لا يكون لك مكانة؛ في دائرة النشاط العام أو الإنتاجية، يعني أن لا يكون لك مكانة، فالهجرة والتهجير والاقتلاع تحرم من الكيونة والسيروورة. ويشكل تجذر الانتماء إلى الهوية والمكان نواة أساسية في بناء الشخصية، وتحقيق الذات .

المكان (الوطن) يفترض حركة باتجاهين: الخروج منه، والدخول إليه. جدلية العلاقة بالمكان تضطرب في ثنائية المنفى داخل الوطن والمنفى خارجه (بيومي، 2004، ص82). أن العلاقة بالمكان، لدى المهجرين قسراً، تتناول الموقع من حيث دلالاته المترابطة: موقع الذات في المجتمع ومكانتها فيه، وموقع الفرد من الجماعة التي يعيش فيها ومكانته عندها، والموقع باعتباره جغرافيا الذات والعالم (بيومي، 2004، ص64).

وتأتي قيمة الوطن في قدرته على توفير مركز الأمان وقيمة الحياة وأهميتها بالنسبة للأفراد. الوطن يوفر أمناً، هوية، ومكاناً يشعر فيه المرء بالارتياح، ولا يحتاج فيه إلى تمثيل الأدوار. إنه المكان الذي يسوده الاستقرار، والدفع، بل ربما يمثل أبعد من ذلك. الوطن بالمعنى النفسي، إما عطاء مستمر في اتجاه واحد، وإعطاء ودين يتوجب على كل مواطن سواء بهويته وانتمائه أو من خلال الاستمتاع بموارده أن يتمكن من إيفائه (عبد الباقي، 2008، 3)

أن وجود البيت والوطن يعتبر من باب المسلمات لدى الغالبية العظمى من سكان المعمورة (Sarup, 1994)

وعليه فإن فقدان الوطن له فعل الصدمة ويترك آثاراً محتملة بعيدة على

تعتبر مرحلة المسنين
المرحلة التي يختتم بها
الفرد حياته، وتتميز
ببعض التغيرات
البيولوجية والنفسية
والاجتماعية
والعقلية، التي تكون
مكثومة إلى حد كبير
ثقافة المجتمع
وباتجاهات الناس
نحوها

الناس. فإن التأثير طويل المدى لآثار الحروب والنزعات المسلحة تستمر لأجيال. وأن أهم الآثار هي الآثار النفسية التي تستمر وقتاً طويلاً. فغالبا ما يصاب أعضاء الأسرة بالاكتئاب والقلق والخوف والحزن الطويل على الشهداء والسجناء، كما تشعر الأسر بالإهمال والتهميش والاستبعاد الاجتماعي والاعترا ب. ولا شك أن ذلك يترك أثراً بعيداً المدى، قد تستمر لأجيال عديدة، تاركة ذكريات مريرة (حطب، 2007).

يرى كوهين (Cohen, 1997) أن مفهوم "الدياسبورا" diasporas يرتبط بمصطلحي الهجرة والاستيطان وأن هذا المفهوم يكتسب بالنسبة لبعض المجتمعات ومنهم الفلسطينيون معنى أكثر شؤماً وقسوة، لأنه يدل في مثل هذه المجتمعات على صدمة جماعية ونفي واستبعاد حيث يحلم المرء بالعيش في وطن في حين يتعين عليه أن يعيش حياة المنفى .

أما (شبلق، 2005) فيرى أن هذا المفهوم هو اعم واشمل بالتعبير عن الخصائص الاجتماعية والانثروبولوجية والنفسية لمجموعة سكانية عابرة للحدود أيا كان السبب وراء مغادرتها لأوطانها.

أما (مهوي، 2005) فيرى أن كلمة "دياسبورا" في الواقع أقوى دلالة في التعبير عن الحالة الفلسطينية من الكلمة العربية "شتات"، وأن كلمة دياسبورا ارتبطت بالأصل بمفهوم الألم و الاقتلاع باستعمال القوة وهو ما خبرته عبر التاريخ مجموعات "دياسبورات الضحايا" كما الفلسطينيين .

أما (سعيد، 1984) فيرى أن الدياسبورا ليست حالة ثابتة مستقرة أو تعني بحال التخلي عن الوطن الأصلي بل هي حالة من الاعترا ب والترحال الدائم وعدم الشعور بالاستقرار ورسم صورة متخيلة للوطن الأصلي الذي يمتلكها الحنين بالعودة إليه.

ويؤكد فايس (Faist, 2000) أن الخبرة الناجمة عن الصدمة هي السبب في وجود الدياسبورا (الشتات) (Clifford, 1994)، بينما يميز كوهين (Cohen, 1997) بين أشكال الشتات المختلفة مبيناً أنه ليس بالضرورة أن تكون جميع

العوامل النفسية
والاجتماعية غير
الملائمة كالعزلة
والضيق الاقتصادي
والحرمان والتجاهل
والإهمال، تؤدي دوراً
كبيراً في جعل مرحلة
الشيخوخة فترة تدهور

الأشكال متسببة عن القوة التعسفية وخبرة الصدمة .
لقد أصبح الشتات بالنسبة للفلسطينيين أساساً جوهرياً في تشكيل هوية وطنية خاصة. وأصبح الشتات وضياع الوطن والشعور بالافتتالاع هو الذي يشكل هوية المعاناة. وهكذا يكون الحزن والحنين للجبل الذي ترك فلسطين جزءاً متضمناً في الأساطير والحكايات الرسمية واللا رسمية، المكتوبة والمحكية (شولز، 2005) والذاكرة الجماعية كما يرى مالكي (Malkki, 1992) ترتبط بدفاء العلاقة مع المكان والجغرافيا، وتظهر هذه الحالة في حديث الفلسطينيين عن بيارات البرتقال وشجر الزيتون، حيث أصبحت شجرة الزيتون الرمز العظيم للوطن، والجذور والتجذروالثبات كما يقول باردنشتاين (Bardenstein, 1999) مما لاشك فيه بأن للرموز والدلالات التي تشتمل عليها الذاكرة الجماعية الأثر الأكبر على عقلية الجماعة وسلوكها. وقد أكد (كاستور ياديس، 2003) على دور عالم الدلالات وأهميته في الإبقاء على تماسك المجتمع هذا العالم من الدلالات الذي يسمح بتصور المجتمع في هويته الذاتية .
أن اللاوعي أو الشعور الجمعي هو (ثقافة) لأنه يتضمن أفكاراً ومعتقدات وقيماً ورموز وأحداث وأساطير، وإن تشابه الناس في سلوكهم واختلاف الأفراد في تصرفاتهم يعود إلى (الثقافة). وبما أن اللاوعي الجمعي عنصر رئيسي من عناصر الثقافة هذه، فإن دوره يكون فاعلاً في حياة الفرد والجماعة. ولقد أكتشف هذا الدور في عشرينيات القرن الماضي، وجرى إبراز أهميته في الفن والآداب أولاً ثم انتقل إلى علم النفس السياسي وعلم الاجتماع السياسي (صالح، 2013) .
ابتكر يونغ (1964) young مفهوم اللاوعي الجمعي وعدّه أكثر أهمية في حياة الفرد والمجتمع من اللاوعي الخاص بالفرد الذي اكتشفه فرويد. هذا المعنى يتيح وصف اللاشعور الخاص بالفرد بأنه الذاكرة الثقافية الفردية، واللاوعي الجمعي بأنه الذاكرة الثقافية الجمعية، بما فيها المخزون المعرفي الأسطوري والسلوكيات الممارسة من قبل أسلافنا؛ فهو يحمل خبرات أو معتقدات مشتركة لدى شعوب أو جماعات داخل شعب معين (صالح، 2013).

المكان من وجهة نظر
نفس - ثقافية هو ليس
الطبيعة الجغرافية و
البيئية التي نعيش
فيها، وهو ليس مجرد
معطيات طبيعية مجردة
يمكن تدوينها على
شكل معلومات، بقدر ما
هو صور ومعاني
ذهنية يعيها الإنسان
في ارتباطه بالمكان
وتسمى بالهوية
المكانية

تتمثل الآليات التي تحكم اللاوعي الجمعي، في التعامل مع بعد زمني واحد هو الماضي، وتغليب العقل الانفعالي (العاطفي) في سلوك الفرد والجماعة، واستقطاب الناس في مجموعتين متفاوتتين، جماعة أُل(نحن) وأُل (هم)، يصف [انه أحول] يرى في أُل (نحن) المتألب ولا يرى المآخذ، ويرى في أُل (هم) المآخذ ولا يرى المتألب، يفهم الصراع على أنه صراع وجود أو لا وجود (أكون أو لا أكون).

والمعنى الخاص لمفهوم البيت(الوطن) للأسرة الفلسطينية هو معنى نفسي وجداني ووجودي في آن. مازال الإنسان الفلسطيني في كل أمكنة تواجهه وفي كل فئة عمرية يحمل أثر التجربة الجمعية لفقدان البيت. إن حرق البيت، أو هدمه كلياً أو جزئياً له معاني نفسية عميقة أهمها أن إسرائيل ما زالت تلاحق الفلسطيني منذ 1948 وتتجح في هدم بيته وزعزعة شعوره بالأمان داخله كلما أرادت ذلك ولمرات غير متناهية. الكثير من الأسر الفلسطينية اللاجئة عاشت شظف العيش لعشرات السنوات بهدف بناء بيت صغير وتوفير الحاجات الأساسية(أبو بكر، 2006).

المشكلة موضوع الدراسة

أن مشكلة بحثنا الحالي تختلف كثيراً عن المشكلات البحثية الشائعة في البحث العلمي في ميدان علم النفس. إنها ترتبط بمحاولة الاقتراب من عالم الحياة اليومية للأفراد في المجتمع الفلسطيني الذين مروا بخبرة ومأساة التهجير القسري عن مدنهم وقراهم ويعيشون في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين داخل الأراضي الفلسطينية، وهذه الدراسة هي بمثابة محاولة إلقاء الضوء على محتويات قصة حياة اللاجئين الفلسطينيين ممثلة بالمسنين الفلسطينيين. في عرضنا لمشكلة البحث نؤكد حقيقتين: الأولى، أن قصة حياة المسنين الفلسطينيين لا تدرس أو تفهم بمعزل عن الإطار العام لطبيعة حياة وخصوصية المجتمع الفلسطيني. والثانية أن قصة حياة المسنين الفلسطينيين أكثر عرضة للنسيان تحت تأثير عامل العمر والوفاة لهؤلاء المسنين و غياب الدراسة العلمية الموثقة لها. وفي ضوء ذلك يمكن تحديد مشكلة البحث في الأسئلة الآتية:

المبررة والتعبير
والاقتلاع تحرم من
الكينونة
والصيرورة. ويشقّل
تجذر الانتماء إلى
الهوية والمكان نواة
أساسية هي بناء
الشخصية، وتحقيق
الذات

الكتاب العربي للعلوم وطب النفس: العدد 45



إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2016

أ.د. كامل كتلو

الاختصاص : (العام) علم النفس ،الدقيق الصحة النفسية
الشهادة :دكتوراه الفلسفة في الصحة النفسية (2004)
المرتبة العلمية :أستاذ مشارك
الاهتمامات العلمية والبحثية :الصحة النفسية ،الدراسات النفسية
الخاصة بالأجنيين الفلسطينيين،علم النفس العصبي ،علم النفس
الايجابي ،علم النفس السياسي.



الوظائف والمسؤوليات :

- رئيس قسم علم النفس جامعة الخليل 2006 -2008
- رئيس قسم / البرنامج الأكاديمي لطلاب العام 1948.(2013 -)
- عضو مجلس كلية التربية والدراسات العليا 2008-2011
- عضو الهيئة التدريسية بقسم علم النفس جامعة الخليل (2000 -)

المؤلفات :

- تعدت النشر سيكولوجية الدواخ والانبغالات كتابه منصبى /أكاديمي
- الإشراف على الرسائل العلمية
- الإشراف على عدد من الرسائل العلمية في برنامج التنمية ؛ ومناقشة ما يزيد عن عشرين رسالة علمية في الإرشاد والصحة النفسية
- نشر أكثر من عشرين بحث علمي
- تحكيم أكثر من ثلاثين بحث علمي لمجلات علمية محكمة

المؤتمرات

المشاركة في مؤتمرات علمية داخل فلسطين وخارجها،منها في سبيل المثال المؤتمر البحوث النفسية في فلسطين 2016، ومؤتمر رابطة علماء النفس المسلمين في ماليزيا 2011، ومؤتمر الصحة النفسية في الجزائر 2013.

إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2016

